المحاضرة السادسة: الاحتلال الوندالي والبيزنطي ومقاومتهما

I. الاحتلال الوندالي:429-534م

1. الوندال

الوندال أحد الشعوب الجرمانية البربرية استوطنوا سواحل البلطيق شمالي نهر الدانوب حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، وخلال القرن الخامس الميلادي بدأوا ينتشرون في جنوب ألمانيا، ثم تقدموا إلى بلاد غالة(فرنسا) واحتلوها ومن هناك عبروا جبال البرانس(البريني) إلى إسبانيا واستولوا عليها عام 409م وسكنوا بجهات غرناطة وجيان.

لقد ظل المغرب خاضعا للرومان إلى سنة 429م، ففي هذه السنة أعلن الحاكم العام الروماني على افريقيا بونيفاس العصيان على حكومة روما، التي كانت ضعيفة في ذلك العصر، وقد استعان بأعداء الرومان على حرب دولته، وهم "الوندال" الذين كانوا يحتلون في ذلك الوقت جنوب اسبانيا، فأسرع ملك الوندال "جينسريك" إلى بلاد المغرب ومعه ثمانون ألف جندي، وكان الوندال في ذلك الوقت يملكون القوى العسكرية الرهيبة المكونة من أسطول ضخم من السفن الحربية، مما حفزهم لتلبية طلب الحاكم العام الوماني الاستعانة بهم، ودخلوا المنطقة بعزيمة الاستلاء لا الاستعانة لصالح المملكة الوندالية

وفي ظل هذه الأحداث، قام القديس أوغسطين، أسقف مدينة عنابة، بمحاولات لدى الحكومة الرومانية في روما. ونجح في إقناع الإمبراطور الضعيف فالنشيان بإعادة بونيفاس إلى ولايته. وحاول هذا الأخير إقناع الوندال بالرحيل عن إفريقيا، ولكنهم رفضوا الاستجابة لذلك، فأعلن عليهم الحرب، وهزموه في ضواحي قالمة فانسحب إلى عنابة واحتمى فيها. ومع استمرار المواجهات، تمكن الوندال من الوصول إليه في عام 431، واستولوا على بونة وجعلوها عاصمة لهم.

في عام 435 ميلادية، جرت مفاوضات بين الوندال والسلطات الرومانية، حيث تم التوصل إلى اتفاق يعترف بحماية الرومان للوندال، وفي إطار هذا الاتفاق، تعهد الوندال بوقف نفوذهم عند حدود نوميديا، وتحملهم الالتزام بدفع غرامة سنوية لروما، إضافة إلى وضع هنريك بن جزريك كرهينة.

ومع ذلك، لم يلتزم الوندال بالاتفاق لفترة طويلة، حيث استغلوا انشغال الرومان في مواجهة القوط ليشنوا هجوماً عنيفاً على مدينة قرطاجنة في عام 439 م. نتج عن هذا الهجوم احتلال المدينة واختيارها كعاصمة جديدة للوندال، حيث أسسوا دولة ذو حكم وراثي.

وعندما سيطر الوندال على شمال الإفريقي اهتموا بمصير جزر حوض البحر الأبيض المتوسط وشنوا حملات بحرية كثيرة استولوا بواسطتها على جزر البليار، وسردانيا، وكورسيكا، وصقلية، وأغاروا على روما واحتلوها عام 455م ونهبوها لمدة 15 يوما ثم رحلوا عنها

الوندال، على عكس الحضارات السابقة، لم يكونوا أنصاراً للثقافة والقيم الحضارية، بل كانوا شعبًا خشنًا ووحشيًا. حكموا بقسوة مطلقة، مستندين إلى الاستبداد، ونهبوا ممتلكات الأهالي واضطهدوا الكاثوليك بسبب انتمائهم الى التيار الآريوسي. قادوا حملات نهب وسلب ودمروا معالم الحضارة والبنية التحتية. رغم ذلك، شهدت البلاد ثورات وطنية تطالب بتحريرها، وفي الوقت نفسه نشبت خلافات داخلية بين الوندال بسبب الصراع على السلطة، مما أدى إلى زيادة الدسائس والمؤامرات ضد كل حاكم منهم.

وقد حاول جليمار إنقاذ الوضع من ذلك الفساد، والتعفن، وسعي دون جدوى لإطفاء نار تلك الثورات الأهلية بالقوة والعسف، واستنجد هلدريك المخلوع بالأمبراطور جستنيان البيزنطي ليساعده على العودة إلى العرش، فأنجده ووجه حملة بيزنطية كبيرة عام 533م إلى إفريقيا وهكذا أحرزت الحملة البيزنطية النصر واحتلت مدينة قرطاجنة عام 534م بعد عدة وقائع هامة في نواحي مدينة تونس الحالية. ووقع جليمار نفسه أسيرا في يد رجال الحملة، وكان ذلك نهاية الحكم الوندالي في إفريقيا بعد قرن من الاحتلال والظلم والطغيان.

ولم يخلف الوندال أي أثر حضاري في البلاد نظرا إلى أنهم، كانوا بداة متوحشين كما سبق.

II. <u>الاحتلال البيزنطي ومقاومته (534-647م)</u>

الدولة البيزنطية:

الدولة البيزنطية، التي تعتبر امتدادًا للإمبراطورية الرومانية، هي جزء من تلك الإمبراطورية وتعرف أحيانًا بالإمبراطورية الرومانية الشرقية. أسس الإمبراطور قسطنطين الأكبر عاصمتها في القسطنطية في عام 330 م، حيث بدأت توسعاتها بهدف إحياء مجد روما. وصل امتداد الإمبراطورية البيزنطية حتى شمال إفريقيا في عهد الإمبراطور جستينيان، الذي استعاد قرطاجنة من يد الوندال في عام 534 م.

السلطة البيزنطية في المغرب القديم كانت ذات طابع عسكري قوي، حيث كانت قرطاجنة مركز السلطة العسكرية بيد حاكم بيزنطي. تميز البيزنطيون بالغطرسة والجبروت، ولم يختلفوا كثيرًا عن الرومان في التعامل مع البربر ونهب ثرواتهم. كان لدى البيزنطيين دورًا في نشر المسيحية وفرض مذهبهم في المنطقة، مما أسهم في غزوهم للمغرب القديم. وكما كان الحال مع العديد من الإمبراطوريات الاستعمارية، فقد

أثقل البيزنطيون الأهالي بالضرائب، مما أدى إلى البؤس وانتشار الأوبئة، وزاد من شعور السكان بالكراهية والحاجة إلى التخلص من الاستعمار البيزنطي.

البيزنطيون في الجزائر

بعد أن استولى البيزنطيون على تونس وطردوا من قرطاجنة حكومة الوندال تقدموا نحو نوميديا واستولوا على عنابة، قسنطينة، قالمة، الحضنة والأوراس وشرشال وتنس وبجاية، سيطروا على باقي المدن كتبسة وخنشلة، تيمقاد وبنوا لهذه المدن حصونا وأسوارا، كما كانت معاملة البيزنطيين للأهالي سيئة

في مواجهة الاستعمار البيزنطي، قاد "يبداس" ثورة قوية جمعت معها الكثير من القادة المحليين، بما في ذلك الزعيم "أورتياس"، الذي كان يقود قبائل الرحل في الحضنة. في معركة حاسمة، واجه "يبداس" القائد البيزنطي "صولمون"، وكانت النتيجة هزيمة كبيرة للجيش البيزنطي. في هذه المعركة الفاصلة، فقد "صولمون" 500 جندي، ونجح "يبداس" في إلحاق هزيمة فاصلة بالقوات البيزنطية.

وفي رد فعل عنيف، قرر "صولمون" الانتقام من الهزيمة بشكل وحشي. قام بإبادة الأطفال في محاولة للقضاء على المستقبل الذي قد يشكل تهديدًا لهم في المستقبل. كما قام ببيع الأسرى من الأهالي في أسواق العبيد، مما أدى إلى معاناة غير محدودة للمجتمع المحلي.

هذه الأحداث تبرز قسوة الصراع بين الثوار المحليين والقوات الاستعمارية البيزنطية، حيث تكشف عن تصاعد حدة الصراع وتأثيره على الحياة اليومية للسكان المحليين الذين كانوا يسعون للتحرر من الظلم والاستبداد.

نهاية الحكم البيزنطي بإفريقيا:

البيزنطيون، مثل أسلافهم الرومان، كانوا يتبعون سياسات العسف والظلم والاضطهاد تجاه الأهالي الذين رفضوا الخضوع لسلطتهم وامتنعوا عن دعمهم في جميع الظروف. في عهد جستنيان، نجح البيزنطيين في السيطرة على البلاد بفضل سمعته القوية وشخصيته وقوته وحكمته. ومع ذلك، بدأت الأمور تتغير بعد وفاته، حيث كان خلفاؤه ضعافًا وكانوا مشغولين بحروبهم ضد الفرس، مما أدى إلى إهمال إدارة إفريقيا وعدم مراقبتها بالشكل الكافي.

الضعف في الحكومة البيزنطية بعد جستنيان أثر سلبًا على إدارة المناطق النائية مثل إفريقيا، حيث لم تكن الاهتمامات العسكرية والإدارية كافية. كما أن حروب الفرس والتحديات الداخلية أثقلت كاهل الإمبراطورية وأدت إلى ضعف الرقابة على مقاطعاتها البعيدة. هذا الإهمال تسبب في تفاقم التوترات

والاستياء بين السكان المحليين، مما دفع ببعضهم إلى الانخراط في حركات تمرد وثورات للتخلص من الاستعمار البيزنطي والتمتع بالحرية والعدالة.

في عام 610 م، قاد قائد الجيش بإفريقيا، هرقل الكبير، انقلابًا واستولى على العرش في بيزنطة. عين ابنه خليفة له في شمال إفريقيا، ومن ثم خلفه في حكم المنطقة ولاة حتى تولى جريجريوس الثاني، الملقب بـ "جرجرير"، الحكم. في هذا الفترة، سعى جرجرير إلى إقامة دولة بيزنطية بربرية في إفريقيا.

في نفس الوقت، ومع توسع الفتوحات الإسلامية في المغرب القديم وبعد فتح مصر وطرابلس بليبيا، أرسل الخليفة عثمان بن عفان جيشًا بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح. قاد هذا الجيش حملة عسكرية ناجحة وألحق هزيمة بالجيش البيزنطي في عام 647 م. كانت هذه الحملة العسكرية إشارة إلى بداية نهاية الاستعمار البيزنطي في المنطقة، وبداية فترة جديدة تميزت بالحكم الإسلامي في بلاد المغرب.